التداولية في فلسفة التعليم السّوي

مدخل: يبدو لأول وهلة استنساخ أحكام استباقية بشأن التواصل البيني في المجتمع البشري قائم على المبادلات اللغوية ، لكن الأحكام التي يسعنا استخلاصها من مناهجنا ومقرراتنا الثقافية لا يمكننا تقصي أثرها وفاعليتها إلا بالاستئناس بأصول الخطاب التداولي، الذي ننهجه عبر من خلال مراساتنا المتعددة، إذ نعتاد لنرسخ أساليب وأشكال خطاب نعدها علمية خالصة. لأجل ذلك انعقدت الصلة الوظيفية بين الخطاب التداولي وبين التعليم.

01/ التداولية وأثرها على المعلم والمتعلم:

أ ــ أهداف التداولية الديداكتيكية: لكل نشاط تعليمي تعلمي أهداف محكمة، ولا ريب أن بلوغ الأهداف في الممارسات البيداغوجية الموجهة لمراس تربوي تعلمي إنما أريد لها إحكام العلاقة الوظيفية الماهوية بين المعلم والمتعلم. وكذا من جهة الآثار التحصيلية لنشاط التعليم، مشار إليه على نحو دلالي، نستلهم مقاصده من متن الخطاب البيداغوجي. وذاك مقصد ف. **فرانسوا** حين حاول التثبت من اختبارات التعلم لدى الأطفال. إذ تبيّن له أن نمط الخطاب االبيداغوجي لا ينصب على إكساب الأطفال عادات تعلمية من جهة ما هي آثار ناشئة عن الممارسات التعلمية، ولكن أيضا بمقدار ما تؤثر في تقويم وتوجيه سلوكياتهم وتعزيز مكتسباتهم اللغوية.

ب ــ مقاربات الآداءات الديداكتيكية الخطابية: كذا عرض **'ريان جونز'** في بعض دراساته الميدانية إلى مقارنة آداءات المعلم والمتعلم على نحو سواء لأجل فهم ثم مقاربة الفعل التداولي لتعيين ماهيته القيمية والديداكتيكية، ثم تمثل الدور الحاسم في الفعل التداولي ما إن كان للضمنيات التي يعرف من خلالها المعلم متعلميه ببعض المعارف والمكتسبات، أم أن هدف الهداف سوف ينصب على تتبع الأنشطة السلوكية للمتعلمين بغرض تعزيز آثارها الناجحة وتقويمها لبلوغ مقاصد النشاط التداولي. فحين يكون الملفوظ صادر عن المتعلم غالبا ما يكون معززا للحجاج والشرح ويؤول إلى بلوغ الوضوح، خلاف صدور الملفوظ من جهة الأستاذ إذ يحجب عنم المتعلم المحاجة ومجاراة نسق الخطاب... وقد اقترح

لاغواردا معايير لتحليل الخطاب البيداغوجي، ومم ضمن مؤشرات الخطاب الاستعراضي (تمشّ استنتاجي شديد الاتسام بضمنيات القول) إذ يستأنس بمسانيد موصولة بالأنا المخاطبة، مركز الفعل الخطابي للمعلم، يحجب فيه الحوار، يعرض فيه الأستاذ معرفا بأثر المكتسبات القبلية [1]. والواقع أن التعليم الوجيه والمثمر لا يهمل واقع الممارسات اللغوية، من حيث أنها تعبر عن ترسخ أنماط التعبير شفهية كانت أم كتابية، ومن ثمة فإن الخطاب اللغوي متسق مع سياقاته الثقافية والاجتماعية والتربوية، في إطار خصوصية البيئة التي تحتويها. وبلالا ريب أن التداولية الخطابية اللغوية تراكمية وتترع إلى الاستمرارية من جهة ما هي خاضعة لنمط التكوين القاعدي المنهج، الذي يراعي خصوصيات النقلات التعلمية، وكذا السلوكيات المقترنة بها، دون إغفال لما يمكن أن يستجد على صعيد التحويرات الوثباتية، التي شأنها أن تصحح مسارات وحدود الممارسات الخطابية موصولة بتنظيراتها العقلانية المتسقة. وقد ظل " علم المواضع السياقي يهتم بتطوير الكفاءات التواصلية، ومن ثمة فإن من مهماته القيام بعمل جسيم يتصل بالظواهر التلفظية او الإشارية، التي يطرح التحكم فيها صعوبات حقيقية لدى الأطفال وحتى عند البالغين عموما. وعمل يتعلق بنسبية الدلالة وبالاستراتيجيات الخطابية، الاستدلالات والضمني والمضمرات. كما يتعلق عمل هذا العلم برهانات التواصل والمواضعات الاجتماعية والتفاعل.

02/ التداولية وتعليم اللغات: " وفيما يتصل بتعليم اللغات المسمّاة 'أجنبية' واكتسابها، يمدّنا علم المواضع السياقي بتوضيح للظواهر الموجودة بين الثقافات وللمواضعات الاجتماعية، ولتنسيب التداخلات (التي ليست بالضرورة أخطاء)، فضلا عما رأيناه مما هو أحرى بأن يكون ضروريا فيما يتعلّق بكفاءات لغة أخرى. وهذا يؤدي بالتوازي مع ذلك إلى تصور جديد للترجمة. إن قابلية الترجمة أمر تنسبه المعايير التي بيّنت التداولية أهميتها في إنتاج الدلالة"([2]).

03/ التداولية الموضعية: "Pragmatique Topique" أسست انطلاقا من نظرية المواضع... وهي تطور مفهوما اجتماعيا خطابيا للنشاط اللساني، الذي يفهم على انه مكوّن للحس المشترك، يوضّح تمييزا أوليا وجهات نظرها: إن مبدأ تشارك المعنى يميز الموضعية عن

(1) - فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر، صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط1، 2007، ص ص 187 - 188.
(2) - المرجع نفسه، ص 192.

التكوين الاجتماعي المعطى. داخل هذه الموضعية تحقق مؤسسات المعنى، من خلال مجتمعات المعنى التي تبررها قواعد الخطاب. يقوم كل مجتمع للمعنى بإنتاج وبناء الحس المشترك الخاص به، من خلال ديناميكية خاصة به، ووفقا لأنماط التباين التي يمكن التنبؤ بها ووصفها... تعتمد هذه النمذجة أيضا على فرضية الكفاءة الموضعية للذوات الفاعلة. وتهتم منظورات التداولية الموضعية خاصة بمجال تحليل الخطاب، ممنا يساعد على توضيح ـــ بل وتجديد ـــ بعض المفاهيم"([3]). وترتكز التداولية الموضعية على منظومة معايير وقيم تحقق المطابقة والملاءمة المعرفية والبراغماتية على حد سواء. وبالتالي فإن التداولية بمعناها الإدراكي يجب أن تلتزم حدود القواعد التي أنشئت لأجلها بينها قاعدة الملاءمة. " يشير هذا المصطلح إلى المفهوم الرئيس لنظرية الملاءمة لدى "سبيربر ـــ ويلسون" التي تفهم بوصفها نظرية لتفسير الملفوظات من منظور سيطوّر بوساطة التداولية الإدراكية، ويمكن صياغة قاعدة الملاءمة على النحو التالي: كلما زاد الأثر الإدراكي للملفوظ كان الملفوظ المعني ملائما. على العكس من ذلك كلما زاد الجهد الإدراكي الذي أنتجه المرسل إليه لتفسير الملفوظ قلت ملاءمة الملفوظ الصادر عن المتكلم"([4]). والملاءمة هاهنا نافية ليوتوبية الخطاب، لأنها لا تحقق الانسجام بين المتخاطبين. كذا يجب نقل الأساليب التداولية من النمذجة العقلانية إلى الممارسة الإمبريقية المحكمة. " إن الملاءمة ليست فقط مبدأ يحكم التواصل الإنساني، فالمتكلمون حسب ما أوضحته ـــ على سبيل المثال ـــ دراسة جيورا Giora(1997- 1998) لا يتقيدون فقط بالبحث عن الملاءمة، فالاعتبارات الخاصة بالانسجام إضافة إلى هذا تحكم التواصل وتلعب دورا رئيسيا في بناء الخطاب وفهمه... إن الانسجام مصطلح يشير إلى مظاهر تنظيمية مفاهيمية للخطاب

(3) - جوليان لونجي: قاموس التداولية، تر، لطفي السيد منصور، دار الرافدين، بغداد، العراق، ط1، 2020، ص ص 214 - 215.
(4) - المرجع نفسه، ص 230.

خاصة بمستوى ما فوق الجملة، فانسجام نص أو ما أو خطاب يعتمد ـــ على الأقل في جانب منه ـــ على قدرة المتكلم على امتلاك وحدة موضوعاتية"([5]).

04/ نظرية التواصل: التواصل غير الإتصال. هو ثنائي يستوجب فعلا ورد فعل، ومن دونه تنقطع عنا سبل التعارف وتنمية مكتسباتنا وقدراتنا المعرفية والسلوكية والثقافية. والتواصل في تعريف كلود زيلتمان: " هو إشراك شخص (أو هيئة Organisme) مموضع في فترة ما في نقطة معيّنة في تجارب منشطة لمحيط شخص آخر أو نسق آخر مموضع في فترة أخرى ومكان آخر، عن طريق استعمال عناصر المعرفة المشتركة بينهما (تجربة عوضية)"([6]). لا ريب أن الإنسان يحوز على مؤهلات وقدرات يتعرف بواسطتها على عالمه الذاتي مثلما يحوز على قدرة التواصل المجتمعي ناهلا من أنساقه وبنياته أصول المشاركة التواصلية الهادفة، محققا بذلك نماء وعي وتثاقف.

خاتمة: بيّن إلى حد يكاد يكون تبديهيا أن الخطاب التداولي عرفاني، نمائي، تقدمي، ينآى بالعقل عن المألوف لسذاجته، يحقق إمبريقيا مقاصد العقل، تبعا لمقارباتها العقلانية والمجتمعية، في إطار مقتضيات بيئية تؤدي إلى مزيد من الفهم والإيضاح لمعلم التواصل البناء وفق ما يستوجبه منطق العلم من دون مناقضة لمقتضيات الواقع البراغماتية.

---

(5) - تساؤلات التداولية وتحليل الخطاب، دراسات وبحوث مختارة، تر، حافظ إسماعيل علوي وآخرون، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2016، ص 67.

(6) - أ. مولز ـ ك. زيلتمان ـ ك. أوريكيوني: في التداولية المعاصرة والتواصل، تر، محمد نظيف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2014، ص07.